

فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعلت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكرياً وافرأً وجيشاً عظيماً، وقدم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً و ساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وانضم إليه من كان بحلب من العسكري، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يصلحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكريين، ففضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماه في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عقيب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

قال العماد: لما تسلّم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص، وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل إلى حلب نجدة، ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماه فحاصروها وراسلوا في الصلح فقدم السلطان في خوف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ما طلبوا وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتفاء إليه مواظباً، وأن يردّ كل ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه، وهو في عسكر خفيف قالوا: ما خبره

صحيح فشرعوا في الاشتطاط، فطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكيف ألحق به في رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصاف، وعزم الانتصاف، فعبر السلطان إلى سفح قرون حماه خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه، ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدمين، منهم: فرخشاه وأخوه تقي الدين، والتقوا فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: وما نظمت في هذه الواقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها غناء وبلاء حسن منها:

ولقد ألفت نفاهاً وهويتها
إذ ليس ينكر للظباء نفاهاً
يا جارة للقلب جائرة دعي
ظلمي وإلا قلت جارا لجار
قلبي كطرفك ما يفيق افاقة
سكران ما دارت عليه عقار
صب بصب الدمع محترق الحشا
خطرت ببال بلائه الاخطار
لم ينجس من خطره الهوى حتى حمى
ذاك القوام شبيهه الخفار
يذري الدموع كأنهن عوارف
لابن الملك شيركوه غزار
من آل شاذي الشائدين بن العلى
أركانهم لها دم وشفار
حسنت بهم للدولة الأيام والـ
أعمال والأحوال والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذي
في مصر تغبط عصره الأعصار

نصر الهدى فتوسط دالاسلام في
أيامه وتضعضع الكنفار

ومنها :

لما قيست جمعهم منظرهم وممة
صيرت ذاك النظرهم وهو نثار

ومنها:

في حالتي جود وبأس لم يزل
للتبر والأعداء منك تبار
تهب الألسوف ولا تهاب الوفهم
هان العدو عليك والدينار
لما جرى العاصي هنالك طائعا
بدمائهم فجرت به الأنهار
وتحطمت عند القرون قروهم
بل كالت الأنياب والأظفار
عبروا المعرة مالكين معرة
والعار يملك تارة ويعار
أو ما كفاهم يوم حمص وكفهم
في بعلبك بمثلها الانذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب

بقصيدة منها،

لا تفن من فرق الفراق الأدمعا
فهني الشهود على الغرام المدعى
واستبق صبرك ما استطعت فإنه
عون لقلبك إن هما ثبتا معا

قلب أصابته العيون ولم يزل
من مسها بالهاجسات مروعا
مأباله قد صد عند صدودهم
عني ولما ودعوني ودعنا
ومن التحير أنني أبصرتة
في ظعنهم وسألت عنه الأضعا
أصبحت إذ شيعتهم لثلاثة
صبري وغمضي والفؤاد مشيعا

ومنها:

أوما اتقيتم حين رعتهم سربه
فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر
أركان ملك الشام حين تضععا
خضع العدو وذل بعد تعزز
لكم وحق عدوكم أن يخضعا
من معشر غريرون جميع ما
لم يذلوه في السماح مضيعا
في مصر واليمن اجتلينا منهم
في عصرنا تبعنا ليو سف تبعنا
الخوايان بملك مصر ومكة
والشام واليمن الحظايا الأربعا
لما عصى الأعداء بالعاصي جرى
بدمائهم طوعا سيو لا دفعا

وقال ابن أبي طي: لما تسلم السلطان بعلبك، وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخي سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح، وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلاً على حلب أجمعوا آراءهم، وكتبوا

سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأخبروه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل، وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشما خطيب حلب، وقطب الدين ينال بن حسان، وغرس الدين قليج، وكان سيف الدين منازلًا لسنجار، وفيها أخوه عماد الدين زنكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره، فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ يجيهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك، فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماه، وأخذوا في حصارها، واتصل بالسلطان ذلك، فرحل من بعلبك إلى حمص، وبلغ عز الدين، فعاد عن حماه، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر، وراسل النائب بحماه علي بن أبي الفوارس يقول له: إننا وصلت في إصلاح الحال، ووضع أوزار القتال، وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة، ويلم شعب الفرقة، فكتب ابن أبي الفوارس بذلك إلى السلطان، وحسن له الصلح، وتلطف في ذلك غاية التلطف، وقدم أبو صالح ابن العجمي، وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح فأجابها السلطان إلى ما أرادوا وتقرر الأمر على أنه يرده إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائباً للملك الصالح، فلما عاين سعد الدين اجابة السلطان إلى الصلح والنزول عن جميع الحصون التي أخذها حمص وحماه وبعلبك طمع في جانب السلطان وتجاوز الحد في الإقتراح، وطلب الرحبة وأعمالها فقال: هي لابن عمي ولا سبيل إلى أخذها، فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعد نازلاً على حماه وحدثه ما دار بينه وبين السلطان، وهون عليه أبو صالح أمر السلطان، وأخبره بقلته من معه، وكان

السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خوف من أصحابه فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره، فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماه، وأخذ في مدافعة الأيام، حتى يقدم عليه باقي عسكره، وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجح فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيמתهم بمراسلة يفتعلها تسويفاً للأوقات، وتقطيعاً للزمان حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيئته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد، فجتمع أصحاب السلطان كردوساً واحداً وأخذوا يحملون يمناً ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر، وضري عسكر حلب والعسكر الموصل على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام السعادة للسلطان، فإنه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضععتهم، وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه وحمل إليهم الأموال وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره وإلا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة، فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان، بل كانوا مشبطين مخوفين لمن قرب منهم، ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه أن لا يوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ولا يذفوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم، ثم سار من وقته مجداً حتى نزل بمرج قرا حصاره، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة، وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماه، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرة وكفر طاب فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه، ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه، عاد السلطان قاصداً دمشق، فلما وصل إلى حماه وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشرifiات الجليلة والاعلام السود، وتوقيع من السديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يا أيها الملك العزيز فضله
لقد غدوت بالعلي مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا
أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى
فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة
لم يولها قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وريا

قال: ورحل السلطان من حماه إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نزل السلطان قرا حصار بنية الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماه ولا تشتموا بنا العداه فاستزدنا عليهم كفر طاب والمعرة، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرّة، وسألهم في المعتقلين أخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتم الصلح، وعم النجح، ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماه يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات والتقليد بما أراد من الولايات، وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين رحمه الله، ثم تسلّم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوال، وأقطع مدينة حماه لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين

قال العماد: وأذكر أنا عبرنا نهر العاصي عائدين، وقد انكسفت الشمس وادهم النهار، وغلب على القلوب الاستشعار وطاحت الأنوار وخفيت الرسوم وظهرت النجوم، وجئنا حمص، ثم بعلبك ثم البقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر ما قرره حسادي في خاطر السلطان، وقالوا: شغله المكاتبه وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل، وهذا تصرفه برفد جزيل، ووجه جميل، والسلطان مع شدة رغبته، متوقف، وإلى ظهور وجه النجاح في أمري متشوّف، وكنت قد أنست مدّة مقامي بالعسكر بذي المجد والمفخر ومورد الكرم والمصدر الأمير نجم الدين بن مصال، وهو ذو فضل وأفضال، وقبول وأقبال، وله

من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إلى فضله
ونباهته ونبله، وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرداً بسؤدده
ومجده، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقوى والورع والعفاف والطاعة،
وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده
الاحسان والبرّ لاسبيا عند كونه بالاسكندرية محصوراً، وكان احسانه
مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً، فلما ملك أحمه، واختار قربه، فلزمت
له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج
والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشعراً، فمن
ذلك ما كتبتة إليه:

لعل نجم الدين ذا الفضل
يذكر الفاضل في شغلي
إن أجل الناس قد رأفتي
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلي
ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان
منها:

عأينت طود سكينه ورأيت شمس
س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
بيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قسافي الفصاحة معجزا
فعرفت أني في فهامة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حمة والحماسة والتقوى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل

وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق أجل
يجري ولا جري الحسام إذا جرى
حداه بل جري القضاء النازل
نابت كتابته مغاب كتيبة
كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوه في عدوه ووليه
في عدله أكرم بعداد عادل
ريان من ماء التقى صاد إلى
كسب المحامد وهي خير مناهل
يا واحد العصر الذي بد الورى
فضلاً بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين فأغنني
عنهم كفيتهم وجد بالجاهلي
أرجوك معتنياً لدى السلطان بي
كرم ما فمئلك يعتني بأمانلي
قرّر لي الشغل المبجل مخلياً
بالي من الهم المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه في راغب، وقال: أنا لا
يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا
تستغني في الملك عن عقد اللطفات، وحل التراجم، والعماد يفني بذلك،
ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره، وأخذ لي خط السلطان
بما قرره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلي.

قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل
بهذه القصيدة:

أصح عقود الغانيات مريضها
وأفتك الحاظ الحسان غضيضها

يقول في مديحها:
ومن عجب صلت لقبله بأسهم
رؤوس أعاد من ظباهم محيضها

قال ابن أبي طي: وظهر في مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادعى النبوة، وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخاييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الارتقي، صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

ثم دخلت سنة احدى وسبعين

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جذبا، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يرشاً
ففسأل رب العلى أن تعيشاً
من الناس بالبرصدت الكرا
م وبالأس في البرصدت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريش
ش فهدمت للمشركين العروشا
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العدا
ة كما طيرت بالفلا الريش

قال: ومدحت مستهل ربيع الأول تقي الدين بقصيدة موسومة، وكان قد فوض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما، ولم أسبق إليها وهما:

يفيد العاقل اليقظ التنابي
ليدرك في الغنى حظ الغبي
ولم تصب السهام على اعتدال
بها لولا اعوجاج في القسي
فقل للدهر يقصر عن عنادي
أما هو يتقي بأس التقبي

حلفت برب مكة والمصلى
وثاوي ترب طيبه والغري (١٤٦)
لأنتم يا بني أيوب خير الـ
ورى بعد الامام المستضي

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين قايباز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز، وكان قايباز هذا محكماً في الدولة الامامية، من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به، ثم إن قايباز خالف الخليفة، وشق العصى وعن له حصار الدار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما احيط بداره إلا بفتح باب في جداره، وانهمز فوصل إلى الحلّه في أوائل ذي القعدة سنة سبعين وهو في موسم الحج فجمع رجاله وتوجه إلى الموصل وخانه أخوانه وخذله أصحابه فتوفي في بعض قرى الموصل، وتفرّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشام منهم: حسام الدين تمريك، وعز الدين اقبودي بن ازغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريباً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله، وكان ذا خزائن مملوّه، وخيل مسومه، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايباز مما يقبل الصفح، وكان اقبودي زوج أخت السلطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: «وما نحسب أنا مع الموالاتة المتناصرة المستظهرة والمسعبي التي كانت لشارات هذه الدولة بالغة ولأعدائهم دافعة، ولنازعهم الأمر

قاصمه، ولجاذبيهم الحق واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه، وكوننا ما أعنا منهم بنجدة من رجال ولا بهادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال، يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالاجبار عندنا واسع، والأعواض لدينا غير متعذره، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنيه، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا أثر غير سلطانه سلطانا، وله إعدار لا بأس أن نعيه فيها لسانا وبيانا»، ثم ذكرها، ثم قال: «وهذا الأمير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبألستنا وسيوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا، وعن بقية الجماعة، فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسال، وبحظنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التدبير».

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً و يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين:

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحاً لما
نجيت يوم نداءه من طوفانها
سمح يروح إلى الندى براحة
قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتى إذا زخرت بحار نواله
غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها

ملك إذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فأسلم صلاح الدين وأبق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السواحل نهضة
قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذي يليه وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده
قصيدة منها:

هل بعد جلق إلا أن ترى حليبا
وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائفة
وقد عنالك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك الناصر، فمدحه
بقصيدة طائيه فأعطاه ألف دينار، فمنها يصف غارته على غزه، وعوده
من ذلك الغزو بالعزه:

فتى مذغزاب الخيل والرجل غزة
نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما هنّ مرابض
ولا أجسم إلا الذي تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب
من الترك لا نوب طعام ولا قبض

وله في السلطان قصائد (١٤٧) أخرى

قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار

العدل بدمشق سنة احدى وسبعين في شعبان منها:
يا ظيية الهرمين من مصر على الـ
ربيع السلام اذا تقوض أو عفا
اصبوا إلى عصر تقادم عهده
فأزيد من وله عليه تلهفا
أحبنا بالقصر لوقصرتم الـ
هجران ما شمت الحسود ولا اشتفى
أشكو إلى الوادي فيحنو بانه
من رقة الشكوى علي تعظفا

ومنها:

وجرى بي الأمل الطموح فأم بي
سلطان أرض الله طرايوسفنا
الناهب الأرواح في طلب العلى
والواهب الآجال في حسن الوفا (١٤٨)

فصل

فيما تجدد للمواصلة والحليين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحليين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الحزم، فحملوهم على النقض والنكث، وأنفذوا من أخذ عليهم الموائيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده، فلما خلا به، طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحليين لهم وناولها إياه، فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه

وردها إليه، وقال: لعلها قد تبدلت، فعرف الرسول أنه قد غلط ولم يمكنه تلافي ما فرط وقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم، وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض، وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الربيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليل إلى بغداد عن السلطان « يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله لسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين، مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد على إنالة خطبنا، والإستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا، وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجه، وأردت عمراً وأراد الله خارجه، وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله أن يكون اسمه معرضاً للحنث العظيم، والنكث الذميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والأخذ قدير، والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الأوامر إلى الموصلية إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضيق خناقة».

ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال: « والمملوك بين عدو اسلام يشاركونه في

هذا الاسم لفظاً ولا ينوون لما استحفظوا حفظاً، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهم إلا أجناده»، ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الاطراف « أن يكونوا للمملوك على المشركين أعواناً، وأن يمثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوها إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرّته، فإن قعدت بهم العزائم وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من أن لا يكونوا أعواناً عليه، يلقنونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»

قال ابن شدّاد: لما وقعت الواقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله في طاعته، وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين، واعتصم بذلك، واشتدّ سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلث كثيرة وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشدّ أمره ويقوي جأشه، فراسله في الصلح فصالحه، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر، والانفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم، فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مراراً حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه وضمه إليه وبكى، ثم أمره بالعود إلى القلعة، فعاد إليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم، وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزاً، ونزل وسار راحلاً إلى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار

بكر، والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر، وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير، حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليك، ووجهوا من كشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرق عسكره يسقي، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال، وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمن عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاها.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسار مسارعين، فما عرجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مدد، ونزلنا الغسولة، وجزنا حماه وخيمنا في مرج بوقبيس، وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوة وشدة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس، فرتب السلطان عسكره، وقوى بقوة قلبه قلبه، وأمد الله بحزب ملائكته حزبه

ولما وصل المواصلة إلى حلب أطلقوا من كان في الأسر من ملوك

الفرنج منهم أرناط ابرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدرك، فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبّرنا العاصي عند شيزر، ورتبنا العسكر وأعدنا الائتمال إلى حماه.

ثم وصف الواقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مئيمهم وآلافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم، ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدّاه، ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين، ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماه، وأطلقهم ثم نزل في السرادق السيفي، فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسي عزه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك، أسدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود، ورأى في بيت الشراب، بل في السرادق الخاص طيوراً من القماري والبلابل والهزاز والببغا في الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فأنسه وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه، وسلم منا عليه، وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض، فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويخلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها، وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تل السلطان إلى بزاعه، وجاوز في سوقه الاستطاعه، وفرق وفارق الجماعة

وفي كتاب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين انكسرت، فتتحرك إلى جانبها ليكون ردها لها ومدداً فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم، فانهزموا

فحقق ما كان وهماً، فسار على وجهه لا يلبوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسير جواريه وحظاياه إلى حلب وأرسل إليه بالأقفاص، وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها الذم من مقاساة الحرب، ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمر والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره، واستعاذ من هذه البلية، وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماه، ثم ردهم وخلع عليهم، وأرسلهم إلى حلب، وهنا العباد للسلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله

حلوا الجنى عالي السنا وضاحه

عاد العدو بظلمة من ظلمه

في ليل ويل قد خبا مصباحه

وجنا عليه جهله بوقوعه

في قبضة البازي فهيض جناحه

حمل السلاح إلى القتال ومادري

أن الذي يجني عليه سلاحه

أضحى يريد مواصليه صدوده

وغدا يجيد رثاءه مداحه

إن أفسد الدين الغلاة بحثهم

فالناصر الملك الصلاح صلاحه

قد كان عزمك للإله مصمما

فيهم فلاح كما رأيت فلاحه

وكأنني بالساحل الأقصى وقد
ساحت بنحردم الفرنجة ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـ
سموت الأجاج فقد طمى طفاحه
لتفك من أيديهم رهمن الرها
عجلا ويدرك ليلها إصباحه
وابغسوا الحران الخلاص فكتم بها
حزان قلب نحوكم متناحه
نجوا البلاد من البلاء بعد لكم
فالظلم باد في الجميع صراحه
واستفتحوا ما كان من مستغلق
فيها فربكم لكم فتاحه
أنتم رجال الدهر بل فرسانه
ولدى الخلوم الطائشات رجاحه
فأكاه نساكاه ضراره
نفاعه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه
مطعامه مقدامه جججاحه
وإذا اتدى في محفل فحميه
وإذا غدا في جحفل فوقاحه

قال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة يد بيضاء وهو محب
للفضل وأهله، باعث للخواطر على مدحه ببذله، فنظمت فيه قصيدة
منها:

نصر أنار المللكم برهانه
وعلا لذة شائتيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبو المظفر يوسف سلطانه

الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتي بغير مرادكم
فهل القضاء لأجلكم جريانه
وكانما لله في أحكامه
فلك على إيثاركم دورانه
فخرأبني أيوب إن فخاركم
بذل الملوك السابقين رهانه
يكفي حسودكم اعتقالاتهم
فكانما أشجانه أشجانه
الدين عز الدين عز بنصركم
والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشكم كبحر زاخر
واللابسون جواشنا حيتانه
فطما هللكهم عليهم بحركم
بأسا وغرق فللكم طوفانه
فضل الملوك الأكرمين بفضله
فعلا زمانهم البهيج زمانه
في فضله في عدله في حلمه
صديقه فاروقه عثمانه
هو في السماح وفي اللقاء عليه
هو في العفاف وفي التقى سلمانه
من آل شاذي الشائدين لمجده
بينيه بيتا عاليابنيانه
بيت من العلياء سام شاهق
ينني على كيوانها أيوانه
ياسالب التيجان من أربابها
ومن الثناء مصوغة تيجانه

والحمد لمال أنتم بآذاله
والمال حمد أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذته، والحليون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلدوا، وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنيء بها السلطان بهذه الكسرة:

وما شك قوم حين قمت عليهم
غداة التقى الجمعان أنك غالب
ولو لم تقدر تلك المقانب لا غتدى
لنفسك في نفس العدو مقانب

قال ابن أبي طي: وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة إلى بزاعة، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل، وصار باقي عسكر حلب إلى حلب في سابع شوال في أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الأيمان والعهود، وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان وخيم عليها أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والمعقل والقلاع، فنفتحها فإننا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها فصوبوا رأيه، فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالأمان وولاهها عز الدين خشترين الكردي.

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه في الثاني والعشرين من شوال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به احسان، بل كان في جر عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولا يياذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره فسلم القلعة بها فيها، وقوم ما كان سلمه ثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات، وسامه على أن يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره، وذهب ما جمعه، ومضى إلى صاحب الموصل فاقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين، قال العماد:

نـزولـك في منبـج

عـلى الـظفـر المـبـهـج

وـنـجـحـك في المـرتـجـي

وـفـتـحـك للـمـرتـجـي

دـليـل عـلى نـجـح مـا

تـحـاول أو تـرتـجـي

أـمـورك فيـاتـرو

مـواضـحـة المـنـهـج

وـشـأنـيـك دـامـي الشـؤـو

نـمـنـك شـقـي شـجـي

وـمـن كـان في حـصـنـه

وـمـن قـبـل لم يـنـجـر

يـقـال لـه لـيـس ذـا

بـعـشـك قـم فـادـرج

فـرأـيـك يـسـتـنـزل الـ

نـجـوم مـن الأـبـرج

فَعَجَّلَ عِبْرَةَ الْفَرَا
تِ وَأَسْرَ وَسِرَّ وَأَدْلَجَ
وَعَجَّ نَحْوَهُ وَتَلَّكَ الْبَلَا
دُوعًا مِنْ غَيْرِهَا عَجْرَجَ
فَحْرَانًا وَالرَّقْتَا
نَ تَالِيَتَا مِنْبِجَ
وَجَلَّ عَنْ الْمُسْلِمِ
مِنْ لَيْلِهِمُ الْمُدْجِي

قال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله، ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفانة فرأى على الأكياس والآنية مكتوبا يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له ولد يجبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي فتعجب الناس من ذلك.

قال: ولما فرغ من منبج نزل على عزاز، ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّ في القتال، وبذل الأموال.

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن عزاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز، وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً، وكان السلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فإن الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله في أسرهم، فرجى السلطان أن يحتاط على المعامل ويصونها صون العقائل، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد مدّة حصارها المذكورة، وقال العماد قصيدة منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلي بيأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها
بحدّه أفنى كنوز أفني الـ
مملوك في الجدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرارومها
أرمنها أفرنجها أبخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه
تفاخر الفرس بأبروازها
تمن من فتح عزاز نصره
أوقعت العداة في اهتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العزم من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قبيازها
برزت في نصر الهدى بحجّة
وضوح نهج الحق في ابرازها
كم حامل للرمح عاد مديا
عجز عجز الحي عن عكازها
ارفع حظوظي من حضيض نقصها
وعدّ عن همازها لمازها
والشعر لا بدّ له من باعث
كحاجة الخيل إلى مهمازها

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدّة مقامنا على عزاز
فأخذوا على غرة وغفلة ما تعجلوه وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم فما
أدركوا إلا فارسا واحداً، فأمر السلطان بقطع يده، بحكم جرده، فقلت
للمأمور وذلك بمسمع من السلطان: تمهل ساعة لعله يقبل مني

شفاعه، ثم قلت: هذا لا يجلب، وقدرك بل دينك عن هذا يجلب، وما زلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه، وسرني سلامة نفسه، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونا وإن سكتكم أنتم فما أسكت أنا، ودمدم وزجر، وغضب وزأر، وقال: لم لا يقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل، فوعظه السلطان واستعطفه، وسكن غضبه وتعطفه، وتلا عليه (ولا تزر وازرة وزر أخرى)^(١٤٩) وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه.

فصل

في وثوب الحشيشية علي السلطان مرة ثانية علي عزاز وكانت الأولى علي حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية علي السلطان ليلة الأحد، وهو نازل علي عزاز وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المنجنقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهات وحض الرجال والحث على القتال، وهو بار ببث أياديه، قار علي الدهر بكف عواديه، والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لته عن تمكينه ولفحت المدينة خذه فخدشته، فقوى السلطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعة وقطعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه، وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من

الضرب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى، اقتلونى معه فقد قتلنى وأذهب قوتى وأذهلنى، فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه، وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مقدماً، فثار عليه أهل السوق فقطعوه، وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوري، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوق كزاعنده بتلك الضربة مفكوك ونهج

سلامته مسلوك، وكان سلا سلامته ، وأقام القوم قيامته ، ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب، وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تآزيراً، ووقفه تمجيراً، وجلس في بيت الخشب، وبرز للناس كالمحتجب وما صرف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صرفه، وإذا ركب وأبصر من لا يعرفه في موكبه أبعد، ثم سأل عنه فإن كان مستشفعاً أو مستسعدا أسعفه وأسعده، ومن كتاب فاضلي الى العادل: « السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها والركوب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضييق صدرا، ولا ما يشغل سراً».

وقال ابن أبي طي: لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعازل والقلاع، فعادوا إلى عاداتهم في نصب الجبائل للسلطان، فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان، فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاءوا بزري الأجناد ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة يتتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالساً في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن

رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه، وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضع على الأرض وركبه لينحره، وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكويج، وقيل إنه كان حاضراً، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح علي اقتلوه واقتلونني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركروه قطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخفضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقية الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصد أصحابه وقطعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر، وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عزاز فقَاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها، وسألوا الأمان فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها واصلح ما تهدم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر، وكانت عزاز أولاً للجفينة غلام نور الدين،

فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك، ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد، وكان سعد الدين كمشتكين في حارم، وكانت اقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها، وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجاً في حارم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم، فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول: لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضاً الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجاً، وقد بلغتني أمور ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له، وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضا الخطيب، والعماد كاتب الانشاء وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة نصره الدين بن زنكي.

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأي العدل ابن العجمي وجعلنا في بيت، ومنع منا غلماننا، ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح، وبتنا في أنكد عيش، وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبي المضا إلى مجلس الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود، وجماعة من

قال ابن أبي طي: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها، وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال.

قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكا صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة يبق لكم، واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضرا يحاصره، فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك، قال: كأنه هو، قال: بأي شيء استحققت منك هذا، وقد قرّبت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل اقليمك، وأراه الكتاب، فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ولا يعرفه ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره، فلم يصدّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل بين يديه صبراً، فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة، ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن، وتوجه إلى حضرموت ففتحها واستتاب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون وكان مقامه بشبام، واستمرّ الكردي بها مدّة، ثم إن صاحب حضرموت تحرّك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد، واستقام أمره، وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولى قلعة تعكر مملوكه قايان.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة

وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد، قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على ما يريد من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريد ليحلف عليه، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل، فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأويل عليه شمس الدولة في اليمين، وقبضه ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فأنفذ إليه من حلب عسكرياً فحاصروه أياماً وسلم الحصن وصلحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة أزبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عمرت وسكنها أجناد أقوياء شجعان ملكت برقة، وإذا ملكت برقة ملك ما وراءها، فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش، وقدمه على جماعة من أجناده وممايكه، فصار إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها، واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد الجريد وفزان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبه في الدخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان

يكمُن النهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة، فلقىه صاحبها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها، ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرق على رجاله عشرين ألفاً، وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيريه وطيب هوائه، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم، فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلاً من أصحابه يقال له صباح، ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة، واتفق أن صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد، ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشي قراقوش أن يقيم وحده، فرجع معهم، فلما حصل بمصر طاب له المقام، وثقل عليه العود، وزوجه تقي الدين باحدى جواريه، وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال وأعد إليكم.

قال ابن الاثير: وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير رحمه الله تعالى، وقد مكث في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقدير الأمور، والاطلاع على دقائق الحسابات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية، والانشاء حيرت العقول، ووضع في كتابة الانشاء وضعاً لم يعرفوه، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوجه بنته، فأطلق وسار إليه وبقي بآمد يسيراً مريضاً، ثم فارقتها وتوفي

بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحمل إلى الموصل فدفن بها، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، رحمه الله تعالى.

قال: ثم إن سيف الدين استتاب دزداراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايباز في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ورد إليه أزمة الأمور في الحل والعقد والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي لقبه أيضاً زين الدين، فكان البلد لولد زين الدين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي ابن الحسن بن عساكر، صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التنوخي الجهمري الصوفي بن الصوفي، ذكره العماد في الخريدة، وقال: كان صديقي وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدين، وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد، وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها في الحقائق وأنشدها في مجلسه:

يا مالكا مهجتي يا منتهى أمني
يا حاضر أشاهدا في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه
حتى إذا صرت تمثالا من الصور
أجريت في قالب روح منورة
تمر فيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين صفاروح منورة
وهيكل صغته من معدن كدر

- ٨٢٢٤ -

إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي
وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري
أو احتجبت فسري منك في ولسه
وإن خطررت فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحور سومي ثم تثبتها
وإن تغيبت عني عشيت بالأثر

ثم دخلت سنة إثنيتين وسبعين وخمسةائة

قال العماد: والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعف، وكفى وكف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرأ كل عشرة لهم وأقالها، وأراد له الاعزاز فردّ عليه عزاز.

وقال ابن شدّاد: أخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة، سألت منه عزاز، فوهبها إياها .

قال ابن أبي طي: لما تم الصلح وانعدت الأيمان، عمّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بانفاذ أخته، وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه، فقام قائماً وقبل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يرده عليهم عزاز فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاه إياها، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن له من حماه وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما اسخطه، وكان الصلح عاماً لهم، وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت في نسخة اليمين: أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بها عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة حتى يفىء إلى الوفاء

والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق، فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عند الاسماعيلية، وكيف قصده بتلك البلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أنفارهم، وخرّب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وهو متولى بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طي: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان، وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدّة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، ووصل السلطان إلى حماه، وقد استكمل الظفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفرو، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الأخوان في المخيم بالميدان، وتحدّثا في الحدّثان، وروعات الفراق، ولسوعات الأشواق، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقتة بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجم

المصري أولها:

الشوق أولع بالقلوب وأرجع
فعلام أذفع منه ما لا يدفع

ومنها

وجملت من وجد الأحبة مفرداً
ماليس تحمله الأحبة أجمع
لا يستقربني النوى في موضع
الاتقاضي الترحيل موضع
فالإصلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضمي الجوانح موجه
جزعاً لبعده الدار منه ولم أكن
لولا هواه لبعده دار أجزع
فلأركبن إليه متن عزائمي
ويجب بي ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها أصبح السعادة يطلع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها،
فقلت: فذكر قصيدة منها:

مولاي شمس الدولة الملك الذي
شمس السيادة من سناه تطلع
مالي سواك من الحوادث ملجأ
مالي سواك من النوائب مفرج
ولأنت فخر الدين فخري في العلي
وملاذآمي وركني الأرفع
الابخدمتك المجلة موقعي
والله مال الملك عندي موقع

وبغير قـربك كلما أرجـوه من
درك المنى متعذر متمنع
للنصر إن أقبلت نحو ي مقبل
واليمن إن أسرعت نحو ي مسرع

قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم إلى مصر السفر.

فصل

في ذكر جماعة من الاعيان تجدد لهم ما اقتضى ذكره في
هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين إذذاك يتولى الشحنة بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماعه بحلمه وراضه، إلى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنة إلى الملك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكة المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فرمنه فات وقت تلافيه، فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه بجرمه، واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبيده، وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك

إرادته بإدارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفر حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسة جميلة جليلة جليله، ورتب له وظائف، وخصه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشام وأمره جار على النظام، ولما اشتدّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أن يبقى القضاء في ذويه، فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علماً منه بأن السلطان يمضي حكمه لأجل سؤالقه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه، ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله، باراً بالأبرار، مختاراً للاخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام، وقد قواه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدّد مرامي مرامه، وهو الذي سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان، فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان، وتوفي ونحن بحلب محاصرون، وذكر العماد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

الموا بسفحي قاسيون فسلموا
على جدك بادي السنات وترحوا
وبالرغم مني أن أناجيه بالمنني
واسأل مع بعد المدى من يسلم
لقد عدمت منك البرية والندا
أحسن من الأم الرؤوف وأرحم
ولاسيما أخوان صدق بجلق
هم في سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤوسهم
فما كان فيهم من يضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفواً ورحة
كما كنت تعفو ما حييت وترحم (١٥٠)

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن احسانه، وأبقى نواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه، وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الاحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا، والسلطان يؤثر أن يفوض إليه منصب القضاء ولا يرى عزل الضياء، فأفضى بسر مراده إلى الأجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك.

قال العماد: وأول ما اشترت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الايام النورية، فملكته في الايام الصلاحية.

قلت: قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وستائة بسبب الحصار، واستمر خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج ماراً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي، وكان ينوب عن كمال الدين في أمره فأمره السلطان أن يجري على رسمه ويتصرف في حكمه، وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه كثيراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عدته مناج، ففوض إليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على أن يتولى محيي الدين أبو

المعالى محمد بن زكي الدين والأوحد قاضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء منفرداً بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين، فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لا يقوم في القضاء بورده وصدوره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه، واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين، فأقام في مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله، وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع، من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النسابورى رحمه الله، ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله « الحمد لله وبه توفيقى »

قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول إلى دمشق توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية، وكان يتولى الرسالة إلى الذيوان العزيز، ويقصده الشعراء، ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرب

ولده وجبر بتربيته يتمه، ثم تعين ضياء الدين ابن الشهرزوري بعده للرسالة إلى الديوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشام فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبه، وهو متوّدّد إليّ بصفاء المحبة.

وفيهما في آخر صفر تزوّج السلطان بالختون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بأمرها، كثيرة الصدقات، والأعمال الصالحات، فأراد السلطان حفظ حرمتها وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين ابن أبي عصرون وعدوله وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، بإذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها، وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام، ولم يزل بنو منقذ ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمفخر، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسةائة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأجداد وما فيهم إلا ذو فضل وبذل، وإحسان وعدل، وما منهم إلا من له نظم مطبوع، وشعر مصنوع ومن له قصيدة، وله مقطوع، وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم بالأدب، وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس

وزيرهم أخوته وإقامة المنعوت بالفائز، وما ردف ذلك من الهزاهز، فعاد
مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها، ولما سمع بالملك
الصلاحى جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال:

حمدت على طول عمري المشييا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنى حييت إلى أن لقيت بـ
سد العدو صديقا حبيبا

قال: وكنت أسمع بفضلله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبه، وأنشدني له
مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما
من مبتكرات معانيه في سنّ قلعهما:

وصاحب لأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه منذ تصاحبنا فحين بدا
لنا ظري افترقنا فرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه، مع كثير من
شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب ما اتفق أنى وجدت هذين البيتين مع بيتين
آخرين، المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير
الاطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسةائة، قرأت في ديوانه
وقال في الضرس:

وصاحب لأمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري
ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بيثي من خال بوجنته
مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال: « لم ألقه مذ تصاحبنا «البيت، فالأشبه أن ابن منير أخذهما، وزاد عليهما، ولهذا غير فيها كلمات، وقد وجدت هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة: « وصاحب ناصح لي في معاملتي»، ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنسباً إليه لما كان مظنة ذلك، ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله اعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفياً، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر، فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً، وإذا كان بدمشق جالسه وأنسه، وذاكره في الأدب ودارسه، وكان ذا رأي وتجربة وحنكة مهذبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحل مشكلاته، وبلغ عمره ستاً وتسعين سنة فإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شببته أيام كونه بشيزر، وذكرت أيضاً له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

فصل

في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول

قال العماد: لما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب، وتقدّمه الأمراء والملوك، وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصفر، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت منزلاً إلا نظمت أبياتاً فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره:

أقول لركب بالخياره نزل
أثيروا فإلي في المقام خيـار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا
بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يجبه
وفي القلب من نار الغرام أوار
أجبروا من البلوى فؤادي فعندكم
ذمام له ياسادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيح
رأيتني بالفقيح منفردا
أضيع من فقع قاعها الضائع
بعث بمصر دمشق عن غرر
مني فياغبن صفقة البائع
صبري والقلب عاصيان وما
غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفواز:
تحدّر بالفوار دمعي على الفور
فقلت لجيراني أجيروا من الجور
وأصعب ما لاقيت أنى قانع
من الطيف مذبتتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:
ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا
أنا مل تدمي حيرة للتندّم
أعدتلك يا زرقاء حمراء إنني
بكيك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عندهم متخلفا
وخالفتهم في عزمتي والتقدّم
فياليت شعري هل أعود إليهم
وهل ليت شعري نافع للمتميم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريية من قلعة الشوبك، وفيها
تختطف الأفرنج القاصدين إلى مصر
طريق مصر ضيق المسلك
سالكه لاشك في مهلك
وحب مصر صار حبالمن
أوقعه في شبك الشوبك
لكنها من دونها كعبنة
محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكي الذي
إليه من أيامه يشكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل
بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب، واتفق أن السلطان سير إلى مصر

الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعي من شاديه إلا إنش
ناديه، ويطرب لسماعها ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله
كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي، وهي هذه:
هجرتكم لأعن ملال ولا غدر
ولكن لمقدور أتيح من الأد
وأعلم أنسي مخطيء في فراقكم
وعذري في ذنبي وذنبسي في عـ
أرى نوباللسدهر تحصي ولا أرى
أشد من الهجران في ثوب السد
بعيني إلى لقياسواكم غشاوة
وسمعي عن نجوى سواكم لذو
وقلبي وصبري فارقاني لبعدكم
فلا صبر في قلبي ولا قلب في صـ
وإني على العهد الذي تعهدونه
وسري لكم سري وجهري لكم جهـ
تجرعت صرف الهم من كأس شوقكم
وها أنا في صحوي نزيف من السـ
وإن زمانا ليس يعمر موطني
بسكناكم فيه فليس من العـ
وأقسم لو لم يقسم الين بيننا
جوى الهم ما أمسيت مقتسم الفـ
أسير لآل مصر وقلبي أسيركم
ومن عجب أسري وقلبي في
أخلائي قد شط المزار فأرسلوا الـ
خيال وزوروا في الكرى واربحوا أجـ
تذكرت أحبابي بجلق بعد ما
ترحلت والمشتاق يأنس بالذ
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
فأسبلت دمعي للبكاء على صـ

ولما قصدنا من دمشق غباغبنا
وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا
موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت
فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعي
ففاضت وباحت بالمكتم من سري
سرينا إلى الزرقاء منها ومن يصب
أواما يسر حتى يرى الورد أو يسري
تلك كرت حمام القصير وأهله
وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريرتين القريرتين وأين من
مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وإيلة
ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثرى
بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثم مد الحصى
ومن يرتجى ريامن الشمذ النزر
فقلت اشرحني بالخمس صدرا مطيتي
بصدر وإلا جادك النيل للعشر
رأيناها عين المواساة أننا
إلى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عيني على فيض عبدة
أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا إلى أرض الديروجنة
هنالك من طلع نضيد ومن صدر

وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا
على بركة الحب المبشر بالقصر
وما بد الفسطاط بشرت رفقتي
بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلي
فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلى مصر تصير تعجبا
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر
فقلت: ملاذي الناصر الملك الذي
حصلت بجداواه على الملك والنصر
فقلت أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت وهل تغني السواقي عن البحر
ثقي برجوع يضم من الله نجحه
ولا يقتضي أن نبذل العسر باليسر
عطيته قد ضاعت منه الرجا
ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول
بالزي الأجل، والعز الأكمل، وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل
سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا حيز
مصر، ووصلت إلينا ثمراتها، وجلت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها

وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إirاده
واصداره، وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها لقلّة الوثوق بأبي
أحصل بمثلها، فنظمت يوم خروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد
ابن شيركوه منها:

بمهجتي خنت العطف

فمستلذ الدلال

يقول لي بانكسار
ورققة واعتلال
معاتباً بحديث
أصفى من السلسال
مما مصر مثل دمشق
بعبت الهدى بالضلال
فقلت عننت أمور
عجيبة الأشكال
أسير في طلب الـ
عز مثل سير الهلال
لم يبلغ البدر لولا الـ
مسير أوج الكمال
وكيف أتى شرك شغلي
وإنه رأس مالي
صلاح حالي صلاح الـ
سدين العزيز النوال
مالي أفارق ملكا
ملكته أمالي
ياناصر الدين قلبي
عليه في بلبال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة وسيدهم المولى الأجل الفاضل،
وقد مدحه بقصيدة منها:

كيف لا يغتدي لي الدهر عبداً
وأنا عبد عبد عبد الرحيم
بدوام الأجل سيدنا الفا
ضلل يادولة الأفاضل دومي
إذ أراه ينوب عني لدى المـ
ملك مناب الأرواح عند الجسوم

ومنها
فرغ الكنز من ذخائر مال
مالثامن نفائس الحمد كنزه
همة مستهامة بالمعالي
للدنيا أيبة مشمته

قال العماد: وتوفرننا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس ومرامي السفن ومجاري الفلك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين ابن الشهرزوري أن يفرجنا في الأهرام، فقد شغفنا بأخبارها في الشام، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها ودرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري، وأحمدنا المقار والمقاري، وهالنا أبو الهول، وضاق في وصفه مجال القول، ورأينا العجائب، وروينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكل يأتي في وصفها بما نقله لا بما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهم حدوده، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسار الأخبار بذكر حديث أحداث عاده وثمروده، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه في بأسه وجوده، وأن في الأرض الهرمين، كما أن في السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين، وكالجبيلين الشاخبين، قد فنيت الدهور، وهما باقيان، وتقاصرت القصور، وهما راقيان، وكأنهما لأم الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب نهدان، ولسلطان العالم علمان، وإلى مراقبي الأملاك سلمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوى ولشمام نسيبان، ومن

زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان،
ولشخص الكرة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولثله من
الفضلاء والأعيان، فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان، وله دار
مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة
قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دار أيضاً على شاطئ
النيل برسم ضيافة من نزل به، قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية
من بعده وانتقل بعد سنين إلى النعيم وخلده.

فصل

في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيهارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع
بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف،
مفهرسة بالمعروف، فليل للأمر بهاء الدين قراقوش متولي القصر، والحال
والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث، وتساوى سمينها
والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى
أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا درية له بأسفار الأدب، وكان
مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها، ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي
أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغربت من مساكنها، وخربت أوكارها،
وذهبت أنوارها، وشتت شملها، وبت حبلها، واختلط أدبيها بنجومها
وشرعيها بمنطقيها، وطبها بهندسيها، وتوارى بها بتفاسيرها، ومجاهيلها
بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات
الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً، إذا فقد
منها جزء لا يخلف أبداً، فاختلطت واختببت، فكان الدلال يخرج عشرة

عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بالدون، وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدة، وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتاباً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بهائة.

قال: فلما رأيت الأمر حضرت القصر، واشترت كما اشتروا، ومريت الأطباء كما مروا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة، انتقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، وبسط يدي لقبضها، قال: وكنت طلبت كتباً عينتها فقال: وهل في هذه شيء منها؟ فقلت: كلها وما استغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال: وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطيء إلى الشاطيء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب وتكامل فيه الحساب، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطيء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل

مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل، وأعطاهما حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دار في القصر ببيارستانا للمرضى، وأستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكرأ وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهب إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأداها.

فصل

في خروج السلطان إلى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل علياً والعزیز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سببي كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية، ثم وصلنا إلى ثغر الاسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر، وشاهدنا ما استجدّه السلطان من السور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

قال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يجلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آتاه، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:
يوماً بحىّ ويوماً في دمشق وبالـ
فسطاط يوماً ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصب ما خلقا
إلا ليقسما بالشوق واليبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:
يا باخلاً عند الوداع بوقفه
لو سامني روعي بهالم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل
ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته
مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسرمت خلا فسي أسرهوى
قلبي ليدك مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادي المبتلي
إذ كنت أنت معذبي والمبتلي

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمند:
نزلت بأرض المنيتين ومنيتي
لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي
سأبلى ولا تبلى سريرة وذكّم
وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر
بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره،
وإفاضة الجود واغزازه، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم
وأخباره، وإشاعه العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعار الشرع وإظهاره
وابقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحني في السلطان ما أنشدته إياه سادس سؤال:
فديتك من ظالم منصف
وناهيك من باخل مسرف
ومنها:

أبلغ دهري قصدي وقد
قصدت بمصر ذرايوسوف
ويوسف مصر بغير التقى
وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تجرهما ينظف
وإهد إلى الاستبار التبا
روهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا
ديخلصك الله في الموقف

وفيها وصل رسل المواصلة، وصاحبني الحصن وماردين إلى دمشق،
فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم
قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طي: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال
الدين بن الشهرزوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمه
السلطان واحترمه، وقدم بعده رسول نور الدين قرأ أرسالان، ورسول
صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان
بمصر، فاعترضهم الفرنج فأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر
حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع
إلى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح
بلاد فزان بأسرها.

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لإرهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص، واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة فقلت:

مولاي عز الدين فرخشاه
الدهر من برجك لا يخشه

ومنها:

تلقاه سمح الكف دفاقها
طلق المحيا كرم باشه
إن شئت فوت بالردى فالقه
أوشئت فوزاً بالعلی فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيدي
حزى لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاد اكم لم يبت
إلا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك فلا قمصه
أمتتم يوما ولا فنشه
أورثك السؤددى ابن العلى
والدك السيد شهاه نشه

وقال في الخريدة: كنا نخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسببي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدّة من وصل في قيد الاسار، فحضر ابن رواحة منشداً مهتماً بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضاً بها وهبه الملك الناصر من الإماء والعييد قصيدة منها:

لقد خبر التجار بـ منه حزم
وقلب دهره ظهر ألبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برأ
وأدر كهـم على بحر بسفـن
وقد جلب الجوارى بالجوارى
يمدن بكل قدم مرجحـن
يزيدهم اجتماع الشمـل بؤسأ
فمـريـان يـيـوح على مـرن
زعت اسكندرية يوم سيقوا
ودمياط إلى المينـا بـغـين
يرون خياله كالطيف يسري
فلوه جمعوا أتاـهم بعد وهـن
أبادهم تخوفه فأسـى
مناهم لو تبيتهم بأمن
تملك حـولهم شرقاً وغرباً
فصاروا لاقتناص تحت رهـن
أقام بآل أيوب رباطاً
رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم
ولم ير جهده في البأس يغني (١٥١)

وفيها أبطل السلطان، المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره
في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين - يعني -
قايماز دزدار قلعة الموصل في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر،
وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان،
وكلاهما متجاوران، قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس
وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية،

وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة سنة احدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وأعيد إلى ولايتها بعد الافراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصله من أعمال شبختان، وأخذ منها وهو طفل، وكان عاقلاً خيراً ديناً فاضلاً، تعلم الفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والثواريح شيئاً كثيراً إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصوم، وله ورد يصلية كل ليلة، ويكثر الصدقة وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عدة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: تنزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد بن مماتي إليّ قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كـريـم الخيـم في الخيـم
أهيف كالريم ذو شمـم
عجبي للشمس إذا طلعت
منه في داج من الظلم
كيف لا تصمي لـواظـه
ورماة الطرف في العجم
لا تصد قلب المحب لكم
لا يجل الصيـد في الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا
مذبراه الله للأمم
أضحكت الكفار في نقم
وغدا الأسلام في نعم
إن يك الشطرنج مشغلة
لعلّي القدر والهـمـم

فهني في ناديك تذكرة
لأمور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدتها
بالعطاء الجسم لا القلم
ونصبت الحرب نصبتها
فأنت كفاك بالفم
فابق للاقدار ترفعها
وأمر الاقدار كالخدم (١٥٢)

وفيها توفي بالاسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني
الديباجي، من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن
عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي الياس، من بيت القضاء والعلم،
وكان واسع الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية قيا بالأدب، متصرفاً في
النظم والنثر إلا أنه مقل من النظم، أوجد عصره في علم الشروط وقوله
المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة (١٥٣)

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسةائة

والسلطان نخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة
ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أولها:

ريـم هـضيم يـروم هـضمي
مـن سـقم عـينـه عـين سـقمي
إن رمت باعاذلي صلاحي
فخلني والهوى وزعمي
لومسك يدكي الغرام قل لي
أنت نصحي أم أنت خصمي
أيـازمـاني الغـشـوم أقـصر
إنك لا تستطيع غشمي
عـبـد الـرحـيم أضـحى
عـوـني عـلى خـطـبـك المـلـم
الـفـاضـل الأفضـل الأجم
لـلـمـفضـل الأشرف الأشم
غـيـث غـيـاث وجمود جمود
ويحـر علم وطود حلم
يـراعـه في اليمـين منـه
تـسـخـرج الـدرّ من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرم علم الدين الشاتاني، وهو
من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وقد سنة اثنتين
وسبعين إلى مصر وأهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين فرخشاه،
وأنزله في جواره، وجمع له من رفته ومن الأمراء ألف دينار، فمدح
السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها:

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا

فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى (١٥٤)

قلت: لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم
مقام قصائد كثيرة، والشاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في
تاريخ دمشق، وذكره العماد في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة
يمينك فيها اليمن واليسر في اليسرى
فبشرى لمن يرجو الندى منها بشرى

قال العماد: وكانت الاعلام السلطانية صفراء لا يفارق نشرها نصرأ

قلت: وفيها يقول بعض الفضلاء:
وأسود خطب دونه الموت أحمر
أتت بالأيدي البيض أعلامه الصفر
فمذ ظهرت منصوبة جزمتم بها
ظهور العدى من رفعها انخفض الكفر
واضحتم تجوز الأرض شرقاً ومغرباً
ولله في إعلاء رتبته سر

وقال العماد: عاد السلطان إلى القاهرة، وأقام بها ثم اهتمت بالغزاة
همته إلى غزة وعسقلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد
الصلاة، وخيم بظاهر بليس في خامسه بخميسه، ثم تقدّمنا منه إلى
السدير، وخيمنا بالمبرز ثم نودي خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة
للاستظهار، وإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للاتباع، وقد أخذ السعر في
الارتفاع، فقلت لغلامي قد بدا لي وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي،
فاعرض للبيع أجمالي وأثقالى، وانتهاز فرصة هذا السعر الغالي، وأنا
صاحب قلم لا صاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من
عاقبة ندم، والمدى بعيد، والخطب شديد، وهذه نوبة السيوف لا نوبة
الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الاسلام، والواجب على كل منا أن يلزم

شغلته، ولا يتعدى حدّه ولا يتجاوز محله، لا سيما ونواب الديوان قد
استأذنوا في العودة، وأظهروا قلة العدّة، وأظهرت سري للمولى الأجل
الفاضل، فسرّه ذلك اشفاقاً علي واحساناً إليّ، وكان السلطان أيضاً يؤثر
ايشاري، ويختار اختياري فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا
تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعود وتدعو
لنا وتسال الله أن يبلغنا من النصر سؤلنا، وكنت قد كتبت أبياتا إلى
المخدوم الفاضل ونحن بالبرز في العشرين من الشهر:

قيل في مصر نائل عدد الرم

لـ ووفر كنيها الموفور
فاغترزنا بها وسرنا إليها
ووقعنا كما ترى في الغرور
وحظينا بالرميل والسير فيه
ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو
سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لي سر إلى الجهاد وماذا
بالغ في الجهاد جهدمسيري
ليس يقوى في الجيش جاشي ولا قو
سي يرى موتورا إلى موتور
أنال للكتب لا الكتاب إقدا
مي وللصحف لا الصفاح حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمام الـ
فاضل الفائض الندي بأموري
فأنامنه في ملابس جاه
رافلاً منه في حبير حبوري
فهو رقى من الحضيض حظوظي
وسماي إلى سري السور

وقال: وما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد

عظم الله فيها من النبوة، وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة،
والسعادات فيها مجددة، وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوّقت
إلى أصدقائي وتشوّشت، وكتبت من المخيم ببلييس إلى القاضي شمس
الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وقد أقام بالقاهرة
وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان،
فكتب في الجواب: رافقه ولا تفارقه، فكرهت رأيه فكتبت إليه:

إذا رضيتكم بمكروهي فذاك رضا
لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضاً
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي
فإنني مستطيب ذلك المرضاً
أنتم أشرتم بتعديبي فصرت له
متعذباً استلذاهم والمضضاً
أصبحت ممتعضاً من أجل أني لا
أرى صديقاً لما ألقاه ممتعضاً
إن رمتم عوضاً بي في محبتكم
فحاش لله أن أبغي بكم عوضاً
لله عيش تقضى عندكم ومضى
وكان مثل سحاب برقه ومضاً
العيش دان جناه الغض عندكم
والقلب محترق مني بجمر غضاً
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
حسبت أن ودادي عندكم رفضاً
قد أظلم الأفق في عيني لغيبكم
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضاً
ولست أول صاب من أحبته
لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شتمت من محنة وأذى
فقد رأيت امتثال الأمر مفترضاً

طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
فيها المأرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم إن خلوتم بانيساطكم
تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم واعهدكم
بسفرتي عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتهم قولاً أسريه
هيهات جوهركم قد عادلي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم
أوفاشرحوالي ذا المعنى الذي غمضا

فكتب إلي في جوابها أبياتا منها:

لاتنسبوني إلى ايشار بعدكم
فلسست أرضى إذا فارقتكم عوضا
ولي وداد تولى الصدق عقده
فما تراه على الأيام منتقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له
بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
صرت كالدهر يجني أهله أسفا
ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت